الصاعقة الثالثة والتسعون: واحرّ قلباه ممن قلبه شبمُ(*)

واحـــرّ قلبـــاهُ ممنْ قلبُـــه شـــبِمُ ... ومنْ بجسمي وحالي عندهُ سقمُ(١)

مـا لي أكتِّمُ حبًـا قدْ برى جسدي ... وتدَّعي حبَّ ســـيفِ الدولةِ الأممُ

إنْ كـــانَ يجـــمعُنا حبٌّ لغـرّتـه ... فليتَ أنّا بقـدرِ الحبِّ نقـتـسـمُ

قـدْ زرْتهُ وسـيـوفُ الهندِ مغـمـدةٌ ... وقـدْ نظرتُ إليـهِ والسـيـوفُ دمُ

فكانَ أحـــسنَ خلقِ اللهِ كلِّهم ... وكانَ أحسنَ ما في الأحسنِ الشيمُ

فـوتُ العـدوّ الذي يممتـهُ ظفـرٌ ... في طيّـــه أسفٌ في طيّـــه نعـمُ

قد نابَ عنكَ شديدُ الخوفِ واصطنعتْ ... لكَ المهـابةُ مـا لا تصنعُ البُـهَـمُ

ألزمتَ نفسَك شيئًا ليسَ يلزمُها ... أن لا يـواريـهُـمْ أرضٌ ولا عَـلَـمُ

أكلمـا رُمْتَ جيـشًـا فـانثنى هربًا ... تصـــرّفَتْ بكَ في آثارِهِ الهـمَـمُ

عليكَ هزمُـهُمُ في كلِّ مـعـتـركٍ ... ومـا عليكَ بهمْ عـارٌ إذا انهـزمُـوا

أمـا ترى ظفـرًا حلوًا سـوى ظفـرٍ ... تصـافحتْ فيـه بيضُ الهندِ واللِّممُ

يا أعـدلَ الناسِ إلا في مـعـاملتي ... فيكَ الخصـامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ

أعـيـــذُها نظراتٍ منكَ صـادقـةً ... أنْ تحسبَ الشحمَ فيمنْ شحمُهُ ورمُ

ومـا انتـفـاعُ أخي الدنيـا بناظرِه ... إذا اســتـوتْ عندَه الأنوارُ والظُّلمُ

(*) مناسبة القصيدة: قالها وقد جرى له خطاب مع قوم متشاعرين وظُن الحيف والتحامل عليه.

(١) الشبم: البارد.

سيعلمُ الجمعُ ممنْ ضمَّ مجلسُنا ... بأنني خيرُ منْ تسعى بهِ قدمُ

أنا الذي نظر الأعمى إلى أَدَبي ... وأسمعتْ كلماتيَ منْ به صَمَمُ

أنامُ ملءَ جُفُوني عنْ شوارِدِها ... ويسهرُ الخلقُ جرّاها ويختصمُ

وجاهلٍ مدّهُ في جهلِه ضحكي ... حتى أتتْه يدٌ فرّاسةٌ وفمُ

إذا رأيتَ نيوبَ الليثِ بارزةً ... فلا تظنّنّ أنَّ الليثَ يبتسمُ

ومهجةٍ مهجتي من همِّ صاحبها ... أدركتُها بجوادٍ ظهرُهُ حرمُ

رجلاه في الركضِ رجلٌ واليدان يدٌ ... وفعلُه ما تريدُ الكفُّ والقدمُ

ومرهفٍ سرتُ بين الجحفلين به ... حتى ضربتُ وموجُ الموتِ يلتطمُ

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

صحبتُ في الفلواتِ الوحشَ منفرداً ... حتى تعجَّبَ مني القورُ والأكمُ[1]

يا منْ يعزّ علينا أن نفارقَهمْ ... وجداننا كلّ شيءٍ بعدكمْ عدمُ

ما كان أخلقنا منكمْ بتكرمةٍ ... لو أنَّ أمركُمْ منْ أمرِنا أممُ[2]

إن كانَ سرّكمُ ما قالَ حاسدُنا ... فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ

وبيننا لو رعيتمْ ذاكَ معرفةٌ ... إنَّ المعارف في أهلِ النهى ذِمَمُ

كم تطلبونَ لنا عيباً فيعجزُكمْ ... ويكرهُ اللهُ ما تأتونَ والكرمُ

ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ منْ شرفي ... أنا الثريا وذانِ الشيبُ والهرمُ

---

(١) القور: جمع قارة: الأرض حجارتها سوداء.

(٢) أمم: قرب.

ليتَ الغمامَ الذي عندي صواعقُهُ ... يزيلُهُنّ إلى منْ عندَهُ الديّمُ

أو النوى يقتضيني كلَّ مرحلةٍ ... لا تستقلُّ بها الوخّادةُ الرّسُمُ[1]

لئنْ تركنَ ضميراً عن ميامنِنا ... ليحدُثنّ لمنْ ودعتُهم نَدَمُ

إذا تَرحَّلتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا ... أنْ لا تفارقَهم فالرّاحلون هُمُ

شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ به ... وشرُّ ما يكسبُ الإنسانُ ما يَصِمُ[2]

وشرُّ ما قنصتْهُ راحتي قنصٌ ... شُهبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ

بأيِّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زعنفةٌ ... تجوزُ عندكَ لا عُربٌ ولا عَجَمُ[3]

هذا عتابُكَ إلا أنه مقةٌ ... قدْ ضمنَ الدُّرَّ إلا أنهُ كَلِمُ[4]

(١) الوخادة: الناقة السريعة.

(٢) يصم: يعيب.

(٣) الزعنفة: الجماعة من الأوباش.

(٤) المقة: المحبة.